الشك بين تصارع الأضداد والغوص في التساؤل
قراءة في رواية "جمرات من ثلج"

أ.د. نادية هناوي سعدون

كلية التربية - قسم اللغة العربية - الجامعة المستنصرية بغداد

انشغل الإنسان منذ الأزل بالوجود، وهذا ما دفعه إلى البحث والتفكير، فكانت الثنائيات التي ظل الفكر منشطرًا فيها بين الشك والإيمان. والشك أسبق من الإيمان، وهو جوهر العقل والأساس المركزي في نظرية المعرفة، ومنذ هيرقليطس الذي يعد أقدم شكاك مرورًا بسقراط وأفلاطون، الذي آمن بفكرة أن الروح خالدة، وأرسطو الذي وجد أن هناك ضرورة منطقية لوجود محرك غير متحرك، يكمن وراء كل القوى الأخرى، وإلى يومنا هذا يتوكد أن الشك مغامرة وتنوير وتجربة وانقسام بين الإنسان والكون بين المعنى واللا معنى.

والشك نقيض اليقين، وهو أنواع، فهناك الشك الديني، والشك العلمي، والشك الثقافي، والشك الذاتي .. وما بين الشك والمنطق بون كبير، تتعالى عبرهما الأسئلة.

ولأن الذات ليست بمعزل عمّا حولها، لذلك شككت متسائلة إزاء واقع أجج كوامنها بتوتر وحساسية وبوعي خاص، بغية إدراك حركة الكون.

والرواية كأحد أجناس الأدب تفتح آفاقًا رحبة للتشكيك لا بالمطلق أو السرمدي، لكنها تشكك على وفق نمط ثقافي كوني متنوع، ويكون طرح التساؤلات إحدى الوسائل الأسلوبية، التي بها يحتل الشك بؤرة الرواية بثماتية، لا تبغي بلوغ إجابات قاطعة أو حدية، ولكنها تحاول أن تضع تصورًا معقولاً لتناقضات الحياة وتضاديتها بين الإيمان واللاأدرية والإلحاد والتصوف والتفلسف بوصفها جميعها تسعى نحو تصعيد نزعة الشك رفضًا للظلم وبحثًا عن العقلانية والمنطقية، وبطريقة علمية مادية ديالكتيكية.

وهذا ما نلمسه في رواية (جمرات من ثلج) للكاتبة اللبنانية د. مها خير بك، إذ تتمظهر البطلة ميس ككينونة ساردة مواجهة هواجسها بثقة حاملة تطلعاتها بحزم واجدة نفسها منهمكة في التساؤل بديالكتيكية تجعلها بحاجة ماسة لإيجاد الإجابات ..

وما جعل هذه الشخصية الروائية صلبة وقوية إنها واعية ومثقفة مدركة لقدراتها ومتفهمة لواقعها، وهي ليست انهزامية ولا سلبية، وما تطرحه من أسئلة هو وسيلة تعبر من خلالها عن تصادمها مع المتناقضات وتبرمها من التضادات، فتعلن بثقة عن تمردها وتحديها محاولة الفهم واكتساب المعرفة..

وهي إذ لا تعاني تشظيًا ولا انكسارًا ولا انقسامًا، فإنها دائبة الغوص في أدق التفاصيل الحياتية راصدة اللحظات بواقعية موضوعية ومتفاهمة مع نفسها، ومع ما حولها بحضور فكري راسخ ومتين، ومن دون أدنى اضطراب نفسي أو عاطفي..

وهي لا تطرح تساؤلاتها إلا لكي تشعر أنها حاضرة بعقلها وجسدها معتمدة أسلوب السرد الذاتي الاسترجاعي لذاكرتها الأنثوية مستعيدة حكايات ماضية، تعيد عبر

استدعائها تشكيل تاريخ وجودها.. وقد تتداعى الأسئلة بشكل لا شعوري كمونولوجات تستبطن بها الساردة ميس أغوار ذاتها المتسائلة مخرجة لها من حيز الصمت إلى حيز الصوت"، لكن القدر شل حركتي، وأنطق لساني، فقلت: هل تراقبني؟"

وقد يداهم التفكير الباطني الصامت عملية الطرح والانثيال الديالكتيكي للأسئلة، إذ لا بوح ولا إعلان، ولكن هناك دومًا توجسًا من الكشف عن ملابسات الواقع وتضاداته، فضلاً عن وجود خوف خفي وخشية متدارية، تسيطر على جوانحها فتجعلها قابعة في صمتها، مفضلة عدم الإعلان مختارة البقاء في الظل.

وحالما تتغلب على تلك الهواجس وتطرد تلك المخاوف تشعر بالانتصار، فترى"أن أعظم إنجاز في الحياة هو انتصار الإنسان على هواجسه وآرائه غير المنطقية، فهل تحرر قناعة ما المرء من أغلال نفسه؟ "

ولئن كانت أزمة (ميس) القلق والتوجس إلا إنها بالمقابل ليست واهمة أو حالمة، وهي إذ تعيش صراعًا داخليًّا فإنه صراع يوسم بالارتكاز والاتزان، ولهذا تجد في تداعي أسئلتها وتواليها خير متنفس، تتحرر فيه من قيود التوجس، كما تنفلت من حالة الالتباس، لتصل إلى الحقيقة المنشودة بلا اضطراب..

وليس في تداعي الأسئلة اشتغالاً نفسيًّا لا شعوريًّا، بل هو انثيال ذاكراتي شعوري مقصود ومرصود من قبل الذات السائلة، التي قد تتسلل التساؤلات إلى أعماقها خفية، فيتحرر ذهنها من أطيافه محاولاً إزالة الغموض عما حولها من موجودات.

وتستعيد الذات الساردة الأسئلة نفسها بين الفينة والأخرى ليس لأنها مرتبكة أو فوضوية أو غير مبالية أو متطفلة وقامعة؛ بل لأن وعيها الذي يصيرها مثقلة بهموم الواقع المعيش، محمل بكم مديد وغزير من الأسئلة المستدعاة عقلاً ووجدانًا.

ولا خفاء أن مهمة فك الذات لأسرار موضوع ما، تتم مشاهدته أو معايشته أو الانخراط في أتونه إنما هو إطار محتم سيجر تلك الذات نحو التفكير المستديم والتداعي المتأزم للتساؤلات "لماذا يصر العقل على قراءة تفاصيل مشاهد تختزنها ذاكرة تمردت على رغبات الوعي؟ ما هذا الرشح المفعم برذاذ الشوق إلى اليقين" ..

ويبقى بلوغ اليقين همًّا مؤرقًا يثقل كاهل الذات ويدفعها إلى الاستعانة بأدوات الاستفهام (كيف ولماذا وأي) لعلها تجد استعلامًا عن المجهول، فتتمكن عبره من مسك الحقيقة بأسئلة تجدها قريبة إلى نفسها مستلهمة من ذاكرتها الواعية حقيقة واقعها، فتتيقن من حتمية التساؤل "فكان السؤال الأكثر قربًا إلى الواقع: هل هذا الرجل ينتمي إلى تنظيم سري أو إلى إحدى الميليشيات؟ فرد عقلي على هواجسي بالنفي"

ولا ضير أن يفترق الهاجس عن العقل، فالعقل هو مصدر الأسئلة وموردها والهاجس هو مفجرها وموقظها، ولا سؤال للعقل ما لم يكن هناك هاجس يدفع العقل إلى التساؤل وما بينهما تفاهم وتصالح يجعلها متعاضدين في تحديد السؤال وبناء أرضيته.

وإذا كان مبعث الهاجس الشك، فإن العقل مبتغاه الحقيقة.. وليست البغية من إثارة التساؤلات الانسياح في متاهة الوجود بل الهدف هو توكيد القناعة بإمكانية تغيير العالم المحيط وتطويره "أسئلة كثيرة تزدحم في رأسي تتصارع ولا تتقاطع تحرضها فضولية تقمعها بحذر وخوف فرضتها حرب أهلية أججتها مصالح آنية ضيقة"

ومع تقدم السرد تتحول الانثيالات التساؤلية إلى احتدامات ديالكتيكية مشاهرة قلقًا ومجاهرة توجسًا، وتستقر التساؤلات في ذهن ميس كقوة خفية تستنزف طاقتها حتى تقودها نحو الكشف عن حقيقة الهادي إمام الرجل الذي أثار غرابتها واهتمامها.

ويكون التحول الدراماتيكي في الرواية مقرونًا بانشغال ميس بهذا الرجل الغامض فتبادر إلى طرح أسئلتها المؤرقة مباشرة عليه أي على الرجل المبهم الذي تقرأ فيه الشك والفضول والغرابة فتغزو عقلها مجددًا الأوهام والشكوك.. وتحاول امتلاك الشجاعة التي تمكنها من الانفلات من أسر هذا الغموض.

وتتعزز معاناتها الفكرية وتلقي بها في منعطف ذهني متعب ومرهق لا تستطيع أن تتخلص من تأثيراته، فيكون مرتكزها النفسي على الأسئلة وانثيالاتها هو الذي سيسترد لها ثقتها بنفسها لتطرد الأوهام وتبلغ الرضى الذاتي متحررة من سجنها الذاتي طارحة تساؤلاتها على شكل حوارات خارجية تارة وحوارات داخلية صامتة أو غير مباشرة تارة أخرى، لتصل إلى مرحلة تبدو فيها كأنها واقعة فريسة لأسئلتها التي تهيمن على حياتها، فتتركها ضحية الشكوك والأوهام"وبخت نفسي، وأنا أحضر قهوتي الصباحية غير أن الجدل بين نفسي ونفسي لم يحسم فالاستنكار الأكثر إيذاء نطقت به ذات تعي نفسها: متى كنت سخيفة أيتها ألانت؟"

وليس الهدف من إثارة التساؤلات إيجاد أجوبة يقينية بقدر ما هي رغبة متطلعة لاستكناه الأشياء والتشكيك فيها، وتهشيم الفرضيات، ودحض الثوابت من خلال التضاد مع الذات، التي تنشطر على نفسها في كينونتين تتبادلان حوارات تأملية، تسعى من ورائها إلى بلوغ اليقين، فتتساءل"كيف انقدت إرادتي بإرادتي إلى هذه الورطة ولكن أين المشكلة"

وما شعورها بالانشطار إلا هزيمة عقلية تدفعها إلى مزيد من التوجس كقولها "كيف سأعيد ترميم بنود العقد بيني

و بينـي ؟ "

أو قولهـا "الشـوق يسخـر منـي

لقد خـاب الظن أنا وأنـا تتكلمان في اللحظـة عينها كيف انشطرت إلى ذاتين؟ لا أدري"

وتحطيم جدار الشك ليس بالأمر اليسير، وهذا ما يتطلب مزيدًا من المقاومة واستنفار أكبر للجدل واستدعاء الحدس بكل أشكاله، لتفتيت براثن الشك بطريقتين الأولى باستعمال السرد بضمير الخطاب متحولة من السرد بضمير الأنا، ليكون في التناوب على الضمائر السردية مراهنة قصدية من الذات تدعم عبرها نزعتها التساؤلية "تبًّا لك يا ميس هل تبررين رغبتك في لقائه مرة ثانية هل سحرك بلطفه وجمال عينيه؟ لا. هي قضية إنسانية وعليك أن تتخذي قرارًا"

وما زالت الذات هي مرتكز التساؤل ومداره، وهي لم تتحرر بعد من أسر التضاد بين الجسد والروح، ولهذا تظل تكابد لوعة السؤال ومرارته، وتتوالى أسئلتها الموبخة لنفسها في صيغة خطاب من الذات، وإليها "ما هذا الشعور يا مس؟ هل يجتاح صمودك توق إلى أمومة ما تزال تؤذي قناعاتك؟ تبًّا لك أيتها ألانا؟ ما هذا الوجع الذي يضرب ثباتي؟"

وهذا التحول من الفعلية الماضية البسيطة إلى الفعلية